علم الاجتماع اللغوي ومساهمته في البحث الأمازيغي

أ. براهم سمير
جامعة المسيلة - الجزائر-

المقدمة:

إن اللغة ظاهرة اجتماعية خطيرة، إن لم تكن أخطر الظواهر الاجتماعية على الإطلاق، فموقف المتكلم من اللغة موقفه من العادات والتقاليد والدين والملابس وطريقة المعيشة في المجتمع الذي يعيش فيه.[1]

يتحتم على من يريد دراسة الإنسان أن يعكف على درس لغته، إذ لا يمكن التعرف على هذا الكائن خارج الحقل اللغوي، إذ كل ما يحدث في هذا العالم، شئنا أم أبينا مرتبط باللغة. فقد نشأت مع نشوء العمل وتطورت معه، ومن دونها لن نحسن عملنا، ولن يتقدم علمنا وفننا، ولن تتقدم حياتنا ولن تكون لنا حضارة، فاللغة إحدى أهم وسائل نشاطنا العلمي والفكري، والاجتماعي.[2]

حيث أن" المجتمع اللغوي" يظل أقدم أشكال المجتمعات الإنسانية وأكثرها أصالة وعراقة، فاللغة هي روح المجتمع الحقيقية ووعاء ثقافته وأداته الأولى والرئيسية للتعبير الفكري عن حضارته، فالعامل اللغوي يعتبر من أهم عوامل الشعور الفردي والجماعي بالانتماء والولاء لحضارة معينة ولمجتمع منظم محدد.[3]

"والواقع أن اللسان مثله مثل كل المؤسسات الاجتماعية يعكس كل ما يجري في المجتمع الذي يستعمله والمجتمعات الإنسانية بطبيعتها مبنية على التنوع وأساسها الصراعات والتناقضات التي تتفاعل فتجعل البنى الاجتماعية تعرف دينامية مستمرة ومتواصلة وتلك هي صيرورة الحياة" [4].

وليس من قبيل المبالغة القول بأن اللغة "تلعب دورا حيويا في كل مجتمع، كونها وسيلة للتعبير والتواصل والوجود، وإنها السلطة من خلال العلاقات التي تحددها القوانين، وأداة توحيد الأمة فكريا وسياسيا، ورمز للهوية الفردية والاجتماعية والثقافية والتوجيهية، ومدونة لحفظ الحضارة وإيصال المعرفة".[5]

1- اللغة والمجتمع:

"لقد كانت اللغة ومازالت وستظل احدى القوى التي ساعدت الكائنات البشرية على الخروج من العالم الحيواني والانضواء في جماعات، وتطور القدرة على التفكير، وتنظيم الحياة الاجتماعية، وتحقيق درجة التقدم التي عليها الإنسان اليوم، لأن الكلام كما يقول فندريس جوزيف في كتابه langage oral et langage par le geste يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلية، ويسمح لنا بالخروج عنه، إنه مبدع، وصانع الحياة الاجتماعية".[6]

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة، ونظمها، وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها العقلية، ودرجة ثقافتها، ونظرها إلى الحياة، وشئونها الاجتماعية العامة ... وما إلى ذلك. فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير. ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب. فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما، وفي ضوء خصائصها في كل مرحلة منها، يمكن استخلاص الأدوار التي مر بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم".[7]

فكلما اتسعت حضارة الأمة، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها، ورقى تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها، وسمت أساليبها، وتعددت فيها فنون القول، ودقت معاني مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة ... وهلم جرا. واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول. فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام، ومن النطاق العربي الضيق التي امتازت به مدنيتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس، كان لهذين الانتقالين أجل أثر في نهضة لغتهم ورقي أساليبهم واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم.[8]

2- أوجه الشبه بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية:

"لا شك أن العلاقات بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وتأثر اللغة بالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي في زمان ومكان معينين قائمة منذ أن وجدت اللغة ووجدت الحياة الاجتماعية، فجوهر الإنسان إنما يكمن في لغته وحساسيته وحياته الاجتماعية".[9]

"والنظر في هذه العلاقات قديم لا ريب، غير أنه لم يستو كمًا، ونوعًا وتنظيرًا، ومنهجًا، وروادًا إلا في عصرنا الحاضر في ظل علم جديد من علوم اللغة أطلق عليه علم اللغة الاجتماعي[10]، كما يسمى علم الاجتماع اللغوي، السوسيو لسانيات، اللسانيات الاجتماعية...الخ.

"تمتاز الظواهر الاجتماعية – وهي التي يتألف من دراستها موضوع علم الاجتماع La sociologie-بصفات كثيرة من أهمها الخواص الثلاث الآتية:

- أنها تتمثل في نظم عامة يشترك في اتباعها أفراد مجتمع ما، ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم الجمعية، وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض والتي تربطهم بغيرهم.
- أنها ليست من صنع الأفراد، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث من تلقاء نفسها عن حياة الجماعات، ومقتضيات العمران. وهذا هو ما يعنيه علماء الاجتماع إذ يقررون أنها من "نتاج العقل الجمعي".

- أن خروج الفرد على أي نظام منها يلقى من المجتمع مقاومة تأخذه بعقاب مادي أو أدبي، أو تلغي عمله وتعتبره كأنه لم يكن، أو تحول بينه وبين ما يبتغيه من وراء مخالفته وتجعل أعماله ضربا من ضروب العبث العقيم، أو تسلط عليه أكثر من جزاء واحد من هذه الجزاءات".[11]

وهذه الخواص الثلاث تتوافر في اللغة على أكمل ما يكون:

- ✓ فاللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد في اتباعه، ويتخذونه أساسا للتعبير عما يجول بخواطرهم، وفي تفاهمهم بعضهم مع بعض.
- ✓ واللغة ليست من الأمور التي يصنعها فرد معين أو أفراد معينون، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر، وتبادل الأفكار. وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه، فيتلقاه عنه تلقيا بطريق التعلم والمحاكاة، كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى، ويصب أصواته في قوالبه، ويحتذيه في تفاهمه وتعبيره.
- ✓ واللغة من الأمور التي يرى كل فرد نفسه مضطرا إلى الخضوع لما ترسمه. وكل خروج على نظامها، ولو كان عن خطأ أو جهل، يلقى من المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح، وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء. فإذا أخطأ فرد في نطق كلمة ما، أو استخدامها في غير مدلولها، أو خرج في تركيب عبارته عن القواعد التي ترسمها لغته، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه، ورموه بالغفلة والجهل، وقد يحول ذلك دون فهمهم لما يريد التعبير عنه. وليس هذا مقصورا على الخطأ الذي يسع الناطق إصلاحه، بل إن الخطأ الذي لا يمكنه إصلاحه، لنشأته عن خلل طبيعي في أعضاء النطق، قد يثير هو نفسه لدى السامعين بعض ما يثيره غيره من الأخطاء، ويجر على صاحبه بعض آلام ومتاعب في تعبيره وتفاهمه.[12]

من طريف ما يروى في هذا الصدد أن بعض خطباء العرب المصابين باللثغة كانوا يرهقون أنفسهم عسرا من أمرهم في إعداد خطبهم حتى لا يبدو فيها أثر للثغتهم، فكانوا يحرصون على ألا تشتمل أية كلمة منها على الصوت الذي لا يقوى لسانهم على النطق به من مخرجه الصحيح.

يروى ذلك عن واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال الذي كان لا يحسن نطق الراء، فكان يتجنه في مهارة وحذق في جميع كلماته التي تشتمل عليه".[13]

3- مشكلة الأمازيغية في الجزائر في ظل التعدد اللغوي:

طرحت المشكلة اللغوية في عدد من البلدان التي نالت استقلالها بعد كفاح مرير للانعتاق من نير الاستعمار. فاللغة بالإضافة إلى كونها أداة اتصال بين أفراد الشعب الواحد، تعدّ مقوما أساسيا في تحديد الهوية الجماعية للمجموعة التي تتحدث بها. إذ أن اختيار لغات معينة لتسمو لمرتبة لغات وطنية أو رسمية يكتسي أهمية كبيرة، لا بدّ أن ينعكس صداه على المستويات السياسية، الاجتماعية والثقافية.

في أفريقيا، وكنتيجة لسياسة التقسيم ورسم الحدود الذي تعرضت له هذه القارة إبان القرن التاسع عشر من قبل القوى الأوربية العظمى في ذلك الوقت، أضحى العديد من دول هذه الأخيرة بعد استقلالها متسما بتعدده اللغوي، سواء أكان ذلك داخل أو خارج الحدود الجغرافية الجديدة لهذه الدول.[14]

وتوضح الخريطة التعبيرية في الجزائر بأن درجة استعمال اللغات في الجزائر ليس متماثلا، فالدارجات الجزائرية تهيمن عل السوق الشفوية وتحقق تواصلا بين المجموعات اللغوية المختلفة فالعربية الفصيحة واللغة الفرنسية لا تستعملهما إلا أقلية من المثقفين، والأمازيغية أمازيغيات، وهي شتات لها مناطقها النافذة وتأدياتها المختلفة التي لا تتفاهم مع بعضها البعض.[15]

ومن هذا التقسيم يمكن إجمال الوضع اللغوي الجزائري كما يلي:

- ❖ اللغات ذات الانتشار الواسع: العاميات أو الدارجات العربية، وهي متنوعة ولكنها تحتكم إلى قواسم مشتركة.
- ❖ اللغات المحلية: الأمازيغية بمختلف تأدياتها ولهجاتها.
- ❖ اللغات الكلاسيكية: العربية الفصيحة واللغة الفرنسية.[16]

ومن بين كل اللغات السالفة الذكر، أثارت الأمازيغية منذ الحقبة الاستعمارية ولا تزال، جدلا واسعا بين الباحثين سواء تعلق الأمر بماهيتها، أصلها، علاقتها باللغة العربية ولهجاتها المختلفة، مجالات استعمالها، أو حقها في الاعتراف الرسمي. وكثيرا ما خرج هذا الجدل من إطاره العلمي المحض، واتخذ مناحي سياسية وإيديولوجية، أثرت سلبا على معالجة المشكلة وزادتها تعقيدا بحيث أضحت تشكل خطرا على السلم الأهلي وورقة في يد كل من يريد العبث باستقرار المجتمع ومقوماته.

تتجلى اللغة الأمازيغية حاليا في شكل عدد كبير من اللهجات المحلية، يمكن تجميعها ضمن لهجات جهوية على غرار القبائلية، الشلحية، الميزابية والتارقية...الخ. وهي موزّعة عبر منطقة جغرافية شاسعة، تمتد من واحة سيوة على الحدود المصرية-الليبية شرقا، حتى المحيط الأطلسي غربا، ومن سواحل البحر المتوسط شمالا إلى غاية بوركينافاسو جنوبا، لكنها في غالب الأحيان متباعدة بعضها عن بعض. ونظرا لهذا التباعد بينها فإن التبادل اللغوي بين مختلف الجماعات الناطقة بهذه اللهجات ضعيف.

وفي السياق ذاته، يشير الباحث كمال نايت زراد بأن " اللغة الأمازيغية مستعملة منذ آلاف السنين عبر كافة أرجاء شمال أفريقيا ... من المرجح أن الأمر كان يتعلق منذ ذلك الحين بلهجات محلية متشابهة بعضها ببعض بشكل كبير. لكن أوجه التباين تعمّقت فيما بينها مع مرور الزمن. ويكمن السبب الرئيسي لهذا التباين في شفويتها؛ نظرا لأن البربر لم يستعملوا قط لغتهم كناقل ثقافي أو كلغة عمل، إذ فرضت عليهم لغة الفاتحين بشكل دائم. لم تعرف أي من لهجاتهم المحلية السابقة الاعتراف الرسمي وتطور كل منها بشكل مستقل عن الأخرى، مما تولد عنه بالتالي تشتت أكبر بينها.[17]

من الثابت أن اللغة الأمازيغية بفروعها ظلت على الهامش لقرون طويلة. وإذا كانت الظروف التاريخية لم تساعدها لكي تحتل مكانتها ضمن اللغات المكتوبة بحوض البحر الأبيض المتوسط، فإن وضعيتها هذه ساهمت في تبرير المواقف اللاحقة من إمكانيات معيرتها، وإدراجها داخل المؤسسات التعليمية

والإدارية والإعلامية. فقد ظل مناوئو مأسستها يبررون مواقفهم هذه ببدائيتها وبتعدد استعمالاتها الشفهية وعدم كتابيتها وغياب إنتاجها لتراث مكتوب، وعدم قدرتها على إنتاج المفاهيم المجردة، وعدم جدارتها كي تلعب دور اللغة الوسيط.[18]

وذلك رغم أن الأمازيغية "لا تشكو قصورا كأداة تواصل قائمة بذاتها، تتوفر بنياتها الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية على خصائص اللغات الحية، فهي تتفاعل مع غيرها من اللغات المتساكنة في نفس المحيط الثقافي، وإنها ملكة لسانية متميزة. ومصطلح اللغة الأمازيغية افتراضي، لغياب اللغة الجامعة."[19]

وبما اللغة الأمازيغية –كما ذكرنا آنفا-غير موجودة حاليا، إلا على شكل لهجات محلية، وهذا حالها بدون شك منذ قرون عديدة. تنوعها يفرض على علماء اللسان إجراء العديد من الأبحاث اللسانية لاكتشاف حقيقة اللغة الأمازيغية كما تطورت محليا عبر مختلف العصور. إن هذه الأبحاث بعيدة عن الانتهاء، كما أنها ليست متعمقة بالقدر المطلوب".[20]

خاصة وأن هذه اللغة وإن "كانت قد استطاعت أن تبقى محفوظة وعلى هامش التاريخ خلال آلاف السنين، فإن عصر الإعلام الآلي ووسائل الإعلام الإلكترونية أخلط المعادلة. حيث أن العولمة رافقتها التكنولوجيا التي لا تستثني أي بقعة من الأرض، مع العلم أن هذه التكنولوجيا تحمل معها حتما دعامة لغوية وثقافية تشكل تهديدا لعشرات اللغات التي تعتبر تراثا للإنسانية".[21]

4- قصور النظرية اللسانية التقليدية في معالجة مشكلة الأمازيغية:

لقد نشأت اللسانيات الحديثة، عندما سعى فرديناند دي سوسير إلى وضع نموذج مجرد هو اللسان، انطلاقا من أفعال الكلام des actes de parole، وقد شكلت دروسه التي تولى طلبته جمعها ونشرها (سنة 1916) بعد وفاته نقطة انطلاق البنيوية في اللسانيات. ورغم بعض الفقرات التي نعثر فيها على تصريحه بأن اللسان " هو الجزء الاجتماعي من اللغة (ص 31)"، أو " اللسان هو مؤسسة اجتماعية(ص33)" فإن كتابه هذا يلح بخاصة على كون " اللسان نظام لا يمتثل إلا لتنظيمه الخاص(ص314)" أو كما تصرح بذلك الجملة الأخيرة من النص: إن موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللسان في ذاته ولذاته".[22]

تثير الفقرات التي يصرح فيها سوسير بأن اللسان " هو الجزء الاجتماعي من اللغة و"اللسان مؤسسة اجتماعية " الاستغراب لما تنطوي عليه من غموض نظري. فكون اللسان مؤسسة اجتماعية هو عنده مجرد مبدأ عام، أو نوع من الدعوة سيتلقاها بعده العديد من اللسانيين البنيويين دون أن يتعاطوا الوسائل الاستكشافية التي تمكنهم من الاضطلاع بهذا التصريح: نسلم بالطابع الاجتماعي للسان ثم ننتقل إلى شيء آخر، إلى لسانيات صورية، إلى اللسان "في ذاته ولذاته".[23]

وفي المقابل، تطور علم اللغة الاجتماعي كحركة مضادة للبنيوية والنحو التوليدي: فقد سعى إلى تجاوز تقييدها لمجال موضوع علم اللغة في النظام اللغوي من خلال مفهوم أوسع لعلم اللغة، فوجه النظر إلى المحددات الاجتماعية للغة، وإلى الأسس الاجتماعية للغة وتأثيرها في المجتمع، باختصار : إلى العلاقات المتبادلة بين اللغة والمجتمع ... فإذا كان هدف علم اللغة البنيوي والتوليدي وصف البنية اللغوية الداخلية في إطار شرط جماعة لغوية متجانسة (مثالية): تتزحزح

في علم اللغة الاجتماعي على العكس من ذلك التبعية المتبادلة لأبنية لغوية واجتماعية إلى القلب، وتدرس الاختلافات (البدائل) اللغوية في تبعيتها للشروط التاريخية والاجتماعية أيضا في التواصل اللغوي، وصار الآن الاختلاف اللغوي موضوع علم اللغة الاجتماعي.[24]

ولعل ما يبرر ذلك، أن "فكرة لغة مطابقة لنفسها من كل الجوانب وعلى مستوى كل ترابها ومستعمليها تعتبر وهم، ونتاج تاريخ سوسيو-ثقافي معين، ولا تطابق أبدا الواقع الموضوعي للاستعمالات اللغوية الملاحظة. فاللغات تمتلك حرية تغير كبيرة، وهذا لا يمنعها من أن تعمل بشكل جيد وفي كل مكان.[25]

لا شك أن كثيرا من الدول سعت، سواء بشكل علني أو بشكل خفي، لتحقيق سياسة لغوية رامية لتأسيس مبدأ أحادية لغتها، لكن وفي حقيقة الأمر تجد من النادر جدا ألا يكون هناك مزجا، وبأشكال معقدة عديدة، بين الحدود اللغوية والحدود الجغرافية لهذه الدول. فغالبية هذه الأخيرة لها أكثر من لغة متداولة بين نسبة معتبرة من سكانها، وأن لأغلبية اللغات المعروفة، وفي كثير من دولة، عددا هائلا من مستخدميها.[26]

لكن "لم يكن التنوع في اللغة أو اللهجة وكذا التنوع عبر اللغات مركز الاهتمام في النظريات اللسانية المهيمنة لهذا القرن-نظرية سوسور (Saussure)، المدرسة الأمريكية، مدرسة براغ، البنيوية، ونظرية شومسكي. ومن نتائج ذلك أن التنظير اللساني ارتكز بشكل كبير على الأشكال المعيّرة (Standardized) للغات أكثر من الأشكال الأكثر تنوعا للحديث الطبيعي."[27]

يمكننا على مستوى عام أن نذكر دائما بأن التعددية والتغيرات هما معطيات ملازمة لكل مجموعة لغوية، وحتى لكل نظام لغوي. فاللسانيات الاجتماعية أعادت النظر كلية في النظرة البنيوية الكلاسيكية للنظام اللغوي المتجانس والمتكامل في كل أجزائه، حتى وإن تعلق الأمر باللغات "الكبيرة" ذات التقاليد القديمة في ميدان التنميط اللغوي.[28]

"ليس التعدد اللغوي – خلافا لما يمكن للبعض أن يتصوّره – وضعا خاصا، وليس مقصورا على مناطق مخصوصة، ولا هو سمة من سمات العالِم الثالثِ على وجه التحديد، أو من سمات البلدان النامية التي نتصورها بداهة موزعة بين "لهجاتها"، و"لغاتها المحلية"، و"لغاتنا"، فالتعدد قدَر مشترك، وإن ظهرت بأشكال مختلفة في كل حال.[29]

فنادرا ما تجد مجموعات كلامية تتسم بأحادية قطبها اللغوي والأمر سيان بالنسبة للدول والأمم. فدولة مثل اليابان وبالرغم من أن محيطها اللغوي يتسم بتنافسه وانسجامه المعروف إلا أن ذلك لا ينفي وجود بعض الأقليات اللغوية التي قد تكون مهمشة كالآنيو والأقليات الكورية.[30]

وعلى صعيد آخر، تعتبر شفهية الأمازيغية عاملا آخر "نرى من الضروري الإشارة إلى الوضعية الخاصة للباحث في اللغة الأمازيغية، حيث يجد نفسه يبحث في لغة ذات تقليد شفهي بصفة شبه حصرية. وفي المقابل نعلم أن علم اللسانيات الغربية (فضلا على باقي اللسانيات) يتمحور حول الكتابي، أي على خطاب جد مُمَعْيِرْ و"مُعدّ"، حول لغة خضعت لسيرورة تدريجية طويلة من التطهير وذلك من خلال "القاعدة"، الكتابة والاستعمال خارج وضعية الكلام. وبالتالي أدى كل هذا إلى الميل لتهميش الظواهر المتعلقة بالاتصال المباشر وإلى وضع قوالب منتقاة ناتجة عن عملية فرز دامت لعدة قرون كنماذج قاعدية."[31]

"الحقيقة الباقية حتى الآن أن لغة الحديث هي أهم وسائل الاتصال الإنساني وأوسعها انتشارا. ومتوسط ما ينتجه الإنسان من حديث أكثر بكثير مما ينتجه من كلام مكتوب وإيماءات وإشارات. ولهذا فإنه من السائغ للغوي Linguist – على عكس دارس فقه اللغة Philologist – أن يهتم أولا باللغة المنطوقة، ثم ثانيا باللغة المكتوبة (باعتبارها – إلى حد كبير أو صغير-تمثيلا صادقا للغة المنطوقة)، وأخيرا – وبدرجة ضئيلة إن وجد اهتمام البتة – بنظم الاتصال الأخرى".[32]

5- المقاربة السوسيولسانية للأمازيغية:

- تعريف علم اللغة الاجتماعي:

"علم اللغة الاجتماعي هو دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع".[33]

"علم الاجتماع اللغوي ميدان بحث ألسني موسع يتطرق لقضايا اللغة في إطار المجتمع ويدرس خصائص اللغات واللهجات، وخصائص استعمالها، وخصائص متكلميها داخل المجتمع اللغوي الواحد وفيما بين المجتمعات اللغوية المختلفة. وهذه الخصائص تتغير فيما بينها ويؤثر بعضها ببعض.[34]

"يعرف علم الاجتماع اللغوي على أنه المجال الذي يدرس العلاقة بين المجتمع واللغة، وبين الاستعمالات المتنوعة للغة والبنى الاجتماعية التي يعيش فيها مستعملوا هذه اللغة. ومن ثم، فإنه المجال الدراسي الذي يعترف بأن المجتمع يتكون من عدة أنماط وسلوكات متداخلة فيما بينها ومنها ما هو لغوي".[35]

"كما عرفه كمال بشر بقوله :(دراسة اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية وعنصراً أو مكونا من مكونات الثقافة). وقال :(وليس المقصود بهذا العلم أنه تركيبة من علم اللغة وعلم الاجتماع أو انه مزج لهما أو تجميع لقضاياهما ومسائلهما، انه يعني باختصار شديد ذلك العلم الذي يدرس اللغة في علاقتها بالمجتمع، انه ينتظم كل جوانب بنية اللغة وطرائق استعمالها التي ترتبط بوظائفها الاجتماعية والثقافية)".[36]

"إن القدر الأكبر من النمو في مجال علم اللغة الاجتماعي قد حدث في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، ولذلك يمكن أن ندرك أنه مازال مجالا حديث العهد للبحث. وليس معنى ذلك أن دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع من ابتكار فترة الستينيات، فعلى عكس ذلك هناك تراث قديم العهد في دراسة اللهجات وفي الدراسات التي تتناول العلاقات بين معاني الكلمات والثقافات المختلفة، وكلاهما يقع في إطار تعريفنا لعلم اللغة الاجتماعي. أما الجديد الذي استحدث في الستينيات، فهو الاهتمام الواسع والإدراك بأن علم اللغة الاجتماعي قادر على كشف الكثير مما كان غامضا من طبيعة اللغة وطبيعة المجتمع".[37]

- تطبيقات علم الاجتماع اللغوي في مجال الأمازيغية:

لا يرجع الاهتمام بهذا العلم إلى الأسباب العلمية الفاعلة فحسب، وإنما تنبع أهمية هذا العلم اليوم من اعتبارات عملية ذات نفع كبير على اللغات، وعلى الجماعات، وعلى الأمم. ومن هذه الاعتبارات العملية نذكر سعي هذا العلم أن يمد التحليل اللغوي بعدا يتجاوز المدى الذي بلغه علم اللسانيات الحديث، وذلك فيما يستدركه علم اللغة الاجتماعي على علم اللسان الحديث من مسائل

كثيرة، منها على سبيل المثال، إغفاله للسياق الذي تستعمل فيه اللغة، ثم يتطلع هذا العلم من وراء ذلك إلى منهج في درس اللغة يستشرفها من خلال بعد أوسع، ويحاول أن يبين كيف تتفاعل اللغة مع محيطها، ويتمثل هذا البعد الأوسع في النظر إلى العوامل الخارجية التي تؤثر في استعمالنا اللغة، وأبرزها التشكيل الاجتماعي، فإن المتغيرات الاجتماعية كطبقة المتكلم، ومركزه، وطبيعة الموقف الذي يتكلم فيه أرسمي هو أم غير ذلك تؤثر في استعمالنا اللغة تأثيرا معينا".[38]

ومن الاعتبارات العملية نذكر أيضا، المشكلات اللغوية في المجتمعات النامية إذ تعيش أكثر هذه المجتمعات على الصعيد الخارجي داخل تعقيدات العصر الزاخر بالأحداث، والتحديات الاستعمارية، والصراعات الفكرية التي تحاول أن تطمس شخصية الشعوب الناهضة، وإيقاف مسيرتها نحو الرقي والاستقلال الفكري والسياسي، وذلك بوأد لغاتها وصولا إلى مسخ تراثها وتقاليدها، باعتبار أن اللغة محور حياة أصحابها اجتماعيا، وفكريا، ووجدانيا. أما على الصعيد الداخلي فإن هذه المجتمعات تعيش أحد مظهرين لغويين هما إما ازدواجية لغوية وإما ثنائية لغوية".[39]

ولعل نظرة سريعة للمشاكل التي تتخبط فيها الأمازيغية، على غرار: المعجم (الاقتراض والتوليد)، اختيار الخط، إدراج الأمازيغية في المنظومة التربوية، التنوعات اللهجية وإشكالية معيرة اللغة المشتركة وكذا تفاعلها مع اللغات العربية والفرنسية ...الخ، تفرض على الباحثين في مجال البحث اللغوي الأمازيغي الاعتماد أكثر على المقاربة السوسيولسانية بدل الاقتصار على الدراسات النظرية المجردة لعلم اللسانيات، التي -ورغم أهميتها – لن تساهم في إعطاء حلول عملية يستفيد منها المجتمع.

- علم الاجتماع اللغوي ومنهجية البحث في الأمازيغية:

بداية، لا مفر من الاعتراف بأنه " من الصعب على المختص المغاربي في الدراسات الأمازيغية أن يكون " ملاحظ خارجي " فقط، لأنه يواجه بالضرورة واقع كون موضوع دراسته، التي هي جزء منه، مهدّد ...فاختيار التخصص في الدراسات الأمازيغية بالنسبة للمغاربي يعتبر دائما خيار ذو معنى، على الأقل تساؤل حول هويته" على حد تعبير الباحث سالم شاكر.[40]

لكن ذلك لا يجب أن يكون ذلك على حساب الموضوعية التي يجب أن يتحلى بها كل بحث علمي، خاصة عندما يتعلق الأمر بموضوع حساس ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية قد يترتب عنها انعكاسات خطيرة على الاستقرار والسلم الأهليين في أكثر من دولة بشمال إفريقيا ومنطقة الساحل الإفريقي.

فمن غير المنطقي، تحويل هذا البحث العلمي الذي يجب الاستفادة فيه من كل المساهمات العلمية الجادة مهما كان مصدرها، سواء من داخل الوطن أو خارجه، إلى مجال "محتكر" من طرف باحثين ينتمون إلى مناطق جغرافية بعينها، أو يحملون خلفية سياسية معينة، ويتم بالتالي إقصاء كفاءات علمية لأسباب ذاتية لا تمت للعلم بشكل.

ومن هنا، يجب تجاوز النظرة الضيقة التي مفادها أن هذا الميدان يعتبر "قبل كل شيء ميدان الوعي الجماعي للناطقين بالأمازيغية، ولهذا السبب لا يليق للمختص في اللسانيات – خاصة الغير أمازيغي – أن يحل محل المعنيين أنفسهم. ستكون هناك لغة أمازيغية، بمعنى لغة ذات "معيار موضوع"، إذا قرر الأمازيغ ذلك

وأعطوا لأنفسهم الوسائل.[41] على حد تعبير سالم شاكر، فذلك ينطوي على مخاطر جمة لا تخدم إلا مصالح دولة أجنبية – حتى لا نسمّيها-لا تكن لنا إلا مشاعر الحقد والكراهية.

وإذا عدنا إلى منهج البحث في علم الاجتماع اللغوي نجده " ينقسم – مثله مثل الكثير من العلوم – إلى جزأين: الجزء "الإمبريقي" (الاختباري) والجزء النظري-والمقصود بالأول، الجزء الخاص بالخروج إلى الميدان لجمع المادة العلمية. وبالثاني الجزء الخاص بالخلو إلى هذه الحقائق المتجمعة والتفكير فيها وتمحيصها. وقد يكون المنهج النظري (المعروف بالمصطلح الغربي Armchair approach) "الجلوس والتفكير المتريث " في دراسة علم اللغة الاجتماعي مفيدا إلى حد ما، سواء استند إلى مادة علمية جمعت بطريقة علمية منظمة كجزء من بحث علمي متكامل أم اعتمد عل مجرد خبرات الباحث الشخصية.[42]

"بطبيعة الحال، إن الخبرات الشخصية للباحث هي مصدر غني للمعلومات عن اللغة في علاقتها بالمجتمع. ومع ذلك فسرعان ما يتضح للباحث أن المنهج النظري قد يكون منهجا محفوفا بالخطر إذا ما طبق على الخبرة الشخصية وحدها، وذلك لسببين: أولهما، أننا قد نخطئ خطأ جسيما في طريقة تفسيرنا لخبراتنا الشخصية، لأن معظمنا لا يدرك إدراكا واعيا القدر العظيم من التباين الموجود في الكلام الذي نسمعه أو نستجيب له في حياتنا اليومية، وثانيهما، أن الخبرات الشخصية منطلق محدود جدا بحيث لا يمكن التعميم من خلاله على اللغة في المجتمع".[43]

الخاتمة:

وخلاصة القول هي أن اللجوء إلى علم الاجتماع اللغوي في الميدان الأمازيغي أصبح اليوم أمرا حتميا لا مفر منه، بحيث لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل ما حققه هذا العلم الحديث في المجتمعات الغربية من إنجازات خلال فترة قصيرة لا تتجاوز الستين سنة من عمره في مجالات تطبيقية كانت اللسانيات "التقليدية" غير مهتمة أو لنقل عاجزة فيها عن تقديم حلول لمشاكل لغوية، سرعان ما تتطور إلى مشاكل اجتماعية وسياسية وثقافية إذا لم تحظ بالاهتمام الكافي. مما يؤثر سلبا على استقرار المجتمع ويعمّق عوامل النزاع بين أفراده وفئاته، بل قد يتحول إلى استحالة للعيش المشترك.

قائمة الهوامش:

[1] محمد عيد، قضايا معاصرة في الدراسات اللغوية والأدبية، عالم الكتب، القاهرة، 1989، ص 75.
[2] هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1988، ط 1، ص ص 17-18.
[3] نازلي معوض أحمد، التعريب والقومية العربية في المغرب العربي، سلسلة الثقافة القومية (6)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986، ط 1، ص 9.
[4] خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص 172.
[5] صالح بلعيد، اللغة الأم والواقع اللغوي في الجزائر، مجلة اللغة الأم، دار هومة، الجزائر 2004، ص 3.
[6] هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1988، ط 1، ص 17.
[7] علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، 1983، ط،4 ص 13.
[8] المرجع السابق، ص 13.
[9] هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1988، ط 1، ص 9.
[10] المرجع السابق، ص9.

[11] علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، 1983، ط 4، ص 5.
[12] المرجع السابق، ص6.
[13] المرجع نفسه، ص6.
[14] برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة ستقادي عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 137.
[15] صالح بلعيد، اللغة الأم والواقع اللغوي في الجزائر، مجلة اللغة الأم، دار هومة، الجزائر 2004، ص 9.
[16] المرجع السابق، ص11.
[17] Kamal Nait-Zerrad, Grammaire du berbère contemporain (Kabyle) ,1-Morphologie, ENAG /Editions, Alger, 1995, p 17.
[18] عبد السلام خليفي، معيرة اللغة الأمازيغية في ضوء بعض التجارب العالمية، مجلة أسيناگ، العدد الثالث، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2009، ص 27.
[19] صالح بلعيد، هويتنا اللغوية: الأمازيغية العربية صراع أم تكامل، Revue Campus, Université Mouloud Mammeri de Tizi-Ouzou, Numéro 3, septembre 2006, ص 49.
[20] Jacques Lanfry, Les berbères, leur langue, leur culture, un renouveau contemporain, Etudes et documents berbères N° 1, La boite à documents, Paris, 1986, p 48.
[21] Salem Zenia, Les berbères : Les défis de l'amazighité aujourd'hui, **Pourquoi écrire en tamazight aujourd'hui ?** Éditions PUBLISUD, IEMed, Condé-sur-Noireau, France, 2010 ,P152.
[22] لويس جان كالفي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة محمد يحياتن، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص 9.
[23] المرجع السابق، ص ص 12-13.
[24] جرهارد هلبش، تطور علم اللغة منذ 1970، ترجمة: سعيد حسين بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2007، ص 355.
[25] سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، ترجمة: حبيب الله منصوري، دار القصبة للنشر، 2003، ص 164.
[26] برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة سنقادي عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص ص 131-132.
[27] جيمس ميلروي وليسلي ميلروي، الأنواع اللغوية والتنوع، دليل السوسيولسانيات، تر: خالد الأشهب وماجدولين النهيبي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ط 1، ص ص 105 -106.
[28] سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، ترجمة: حبيب الله منصوري، دار القصبة للنشر، 2003، ص 164.
[29] لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت،2008، ط1، ص 77.
[30] برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة ستقادي عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 131.
[31] Chaker Salem, manuel de linguistique berbère, Syntaxe et diachronie, Tome II, ENAG- Editions, Alger, 1996, P84.
[32] ماريو پاي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة،1998، ط 8، ص 40.
[33] د. هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، 1990، ط2، ص 12.
[34] ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية تطبيقية، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ط1، ص 9.
[35] برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة عبد القادر ستقادي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 21.
[36] كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي (مدخل)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،1997، ط 3، ص 41.
[37] د. هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، 1990، ط 2، ص 12.
[38] هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1988، ط 1، ص 50.
[39] المرجع السابق، ص50.
[40] سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، ترجمة: حبيب الله منصوري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2003، ص 160.
[41] المرجع السابق، ص165.
[42] د. هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، 1990، ط 2، ص 13.
[43] المرجع السابق، ص13. revue.fshs@univ-biskra.dz